الشعر في الانسان

لماذا كان بعض الحيوان مغطىً بالحراشف وبعضهُ بالطلب وبعضهُ بالشعر وبعضهُ بالصوف . ولماذا بشرة الانسان بادية والشعر طويل في رأس الرجل والمرأة وكثيف في حواجبها وفي لحية الرجل وشاربيهِ . ولماذا يتنوّع ذلك على ضروب شتى في الانسان والحيوان فترى الرجل المنفلل شعر الرأس والجعدهُ والسبطه والطويل اللحية والكوسج والاجرد والطويل المسربة [1] والدقيقها . والمرأة القرناء الحاجبين والبلجاءها والطويلة الدبب [2] والقصيرتهوكلهم اصلاً من اب واحد وامٍ واحدة . فعلى مَ هذا الفرق العظيم بينهم أحدث ذلك كلهُ بالصدفة العمياء لا بحسب سنّة ولا بحسب ناموس فيتزوج الزنجي المنفلل الشعر بالزنجيّة المنفلتة الشعر ايضاً ويولد لها ولد منفلل الشعر او سبطهُ على غير قياس او ان ذلك كلهُ خاضع لنواميس ثابتة ومبني على اسباب مقرّرة فلا يولد من الزنجي والزنجيّة الاّ منفلتو الشعور واذا خالف الولد والدهِ في شعرهِ فالمخالفة قليلة في اول الامر ثم تزيد او تنقص على تعاقب الاعقاب . واذا حدث ما يطيل شعر الانسان طال واذا حدث ما يقصرهُ قصر واذا حدث ما يزيلهُ زال وهذا شأن الحيوان ايضاً

والانسان ميّال الى البحث عن علل ما يراهُ ولذلك أكثرَ السائلون من مسائلتنا عن سبب ما يُرى من اختلاف الشعر بين الرجل والمرأة وبين افراد كلٍّ منهما . ولمّا رأينا ان لابدَّ من اجابة طلب السائلين لكثرة الحاحهم جمعنا الفصل الآتي واكثرهُ مقتطف ممّا كتبهُ الشهير داروين في هذا الموضوع وكلهُ ظنون واحتمالات وترجيحات كما سترى شأن اكثر المباحث الطبيعيّة التي لا يبلغ اليقين فيها مبلغ اليقين في المسائل الرياضيّة المبنيّة على الاوليات ولا في المباحث الكيماويّة المبنيّة على الامتحان . واذ قد تمهد ذلك نقول

ان الانسان يخالف اكثر الحيوانات في كونهِ بادي البشرة ويشاركهُ في ذلك الحوت وفرس المجرفان جسميهما عاريان من الشعر والفيل والكركدن فان شعرها قليل جدًّا والكلب الياباني فان بدنهُ خالٍ من الشعر وفيهِ شعيرات قليلات على رأسهِ . ولكنّ جسم الرجل لا يخلو من شعر طويل نابت في اماكن مختلفة منهُ ولا سيّما في وجههِ وصدرهِ ومنكبيهِ والمرأة لا يخلو جسمها من زغب دقيق وكلاهما وافر شعر الرأس . والناس مختلفون في ذلك كلهِ باختلاف شعوبهم وقبائلهم بل باختلاف افراد الشعب الواحد فترى المسربة (شعر الصدر)

(١) شعر الصدر (٢) شعر وجه المرأة

طويلة كثيفة في بعض الرجال وقصيرة خفيفة في غيرهم · وقس على ذلك شعر الوجه والحاجبين والمنكبين واليدين والرجلين

و يذهب علماء الطبيعة الى ان الشعر الذي يُرَى الآن متفرِّقًا في ابدان الرجال و بعض النساء هو بقايا الشعر الذي كان يغطي ابدانهم كلها في عصر من العصور السالفة و يستدلون على ذلك من ان الزغب الذي يكون في اكثر الاعضاء قد يطول و يغلظ و يكثُّ اذا التهبت تلك الاعضاء في ما يجاورهُ ومن ان الجنين يكون في الشهر الخامس والسادس مغطًّى بشعر طويل و يكون شعر وجههِ حينئذٍ اطول من شعر رأسهِ ولكنَّ راحتي يديهِ واخمصي قدميهِ تكون عارية من الشعر مثلما هي عارية في اكثر الحيوانات · و يبعد عن الظن ان يكون ذلك كلهُ حادثًا اتفاقًا لغير سبب فيرجحون ان شعر الجنين يدلُّ على ان جسم الانسان كان وقتًا ما مغطًّى بالشعر الطويل مثل بقيَّة الحيوانات · واكثر الاطفال الذين رأيناهم حال ولادتهم كانت وجوههم مغطاة بشعر فيهِ شيءٌ من اللون الاسود ثم زال كلهُ بعد ايام او استحال الى زغب ابيض عادي واما رؤوسهم فكانت مغطاة بشعر اسود طويل ولم يزد طولهُ وهم في الشهر الثالث والرابع عنهُ حين ولادتهم بل قصر قليلاً وزال بعضهُ وضرب لونهُ الى الشقرة ثم صار اشقر تمامًا · والظاهر ان العرب انتهوا الى الشعر الذي يولد بهِ الطفل فسموهُ عتيقةً · وقد قابل الاستاذ برندت بين شعر وجه الجنين وشعر رجل ولد وجسمهُ مغطًّى بالشعر فوجدهما متشابهين

قلنا ان الفيل والكركدن قليلا الشعر جدًّا الآن ولكنهما لم يكونا كذلك حينما كانا يسكنان الاقاليم الباردة كما يظهر من آثارهما الباقية الى يومنا هذا ولا سيما آثار الفيل الذي كان يسكن بلاد سيبيريا فان جسمهُ كان مغطًّى بشعر طويل فكأن الشعر زال من بدن الفيل والكركدن بابتعادهما عن الاقاليم الباردة ويؤيد ذلك ان فيل الهند الذي يسكن الآن النجود الباردة اكثر شعرًا من الذي يسكن السهول الحارَّة ولذلك استنتج البعض ان الانسان فقدَ شعرهُ حينما كان يسكن المنطقة الحارَّة وانهُ لم يزل فيهِ جانب من شعر صدرهِ وابطيهِ لان شعرهُ زال قبلما انتصبت قامتهُ فكان صدرهُ وابطاهُ غير معرضة للشمس · ويتجه على ذلك بقاء الشعر في رأس الانسان فان الراس معرَّض لاشعة الشمس سواءٌ كان الانسان منتصبًا او غير منتصب · والفرود التي تسكن المنطقة الحارَّة ابدانها مغطاة بالشعر وهو اكثف على ظهورها غالبًا منهُ على بقيَّة بدنها · والتي شعر ظهورها غير كثيف سببهُ انها تقعد بجانب الاشجار وتحكُّ ظهورها بها فزال الشعر من مقعدتها وزال بعضهُ من

ظهرها بالاحتكاك ولعلَّ ذلك سبب زوال ذنبها ايضاً . وعلى وفاق الحرّ ليس السبب في زوال الشعر

وقد خطر لنا حينما طالعنا كتاب اصل الانسان منذ نيف وعشر سنوات ان سبب زوال الشعر من الفيل والكركدن مرض جلدي كالجرب ونحوهِ فان الجمال الجربي يتناثر شعرها وتبدو بشرتها فلو سكنت بلادًا حارَّة رطبة وتوالى ذلك عليها عامًا بعد آخر مدة اعوام كثيرة لبدت بشرتها وثبت ذلك فيها بالوراثة وهو ظن لم نرَ احدًا من الكتّاب ذكرهُ ولا يمكن ترجيحهُ ما لم يثبت ان زوال الشعر من الحيوان يجيء من هذه الامراض او يسرع شفاءهُ منها او يفيدهُ بوجه من الوجوه

الاَّ ان الشهير داروِن يرى لزوال الشعر سببًا آخر وهو الزينة والانتخاب الجنسي ويراد بالانتخاب الجنسي ان الذكور تفضِّل بعض الاناث على غيرها والاناث تفضل بعض الذكور على غيرها فتتوفر اسباب إخلاف النسل للمفضَّل اكثر مما تتوفر لغيره . فاذا زاد ريش طاووس تزوُّقًا وجمالاً فضلتهُ انثى الطاووس على غيرهِ فيأتي فراخها حسان التزويق مثل ابيها وامثلة ذلك كثيرة في الطبيعة وفي الصناعة ايضاً وبهِ ولَّد الانسان الخيول الاصائل والمواشي الغزيرة اللبن والاغنام الطويلة الصوف والفاكهة الطيبة الثمر . وبهِ يتحسن نوع الانسان قدًّا واعتدالاً عامًا بعد عام

وعندهُ ان الانسان نزع الشعر من بدنهِ بقصد التجمل كما يفعل بعض افرادهِ لهذا العهد . ومن المعلوم ان ابدان النساء اقل شعرًا من ابدان الرجال وان رؤوس بعض الطيور واعناقها عارية من الريش وكذا وجوه بعض القرود واجزاء أُخرى من ابدانها . والبشرة في كل ذلك تزيد ظهورًا في فصل المزاوجة كأن خلوَّها من الريش والشعر لهُ علاقة بالمزاوجة هذا فضلاً عن ان استعمال الناس لهذا العهد في كل الاقطار تقريبًا يثبت انهُ يقصد بنزع الشعر التجمُّل . فمن المحتمل ان النساء شرعنَ اولاً في نتف الشعر من ابدانهنَّ لهذه الغاية وواظبنَ على ذلك قرونًا كثيرة حتَّى صار عادة مألوفة . وعلى طول الزمان ماتت اصول الشعر وصار الاولاد يولدون خالين منهُ ذكورًا واناثًا لان ما يعرض على احد الوالدين قبلما تولد اولادهُ ينتقل الى ولدهِ ايضاً . ثم ثبت ذلك في نسلهم بالانتخاب النوعي

ومن المعلوم ان الشعر اغزر في الشعوب المتمدنة منهُ في اكثر الشعوب المتوحشة وذلك يدل على ان ظهورهُ ثانيةً في الشعوب المتمدنة رجوع الى الاصل لان الصفات التي ثبتت زمانًا طويلاً ثم زالت تميل الى الرجوع ثانيةً ويؤيد هذا ان البله الذين يرجعون الى الاصل في كثير من اوصافهم العقليَّة والجسديَّة يرجع الشعر الى النمو في ابدانهم فيكون غزيرًا فيها

واللحية موجودة في بعض الحيوانات ذكورًا واناثًا او خاصة بالذكور او هي فيهم اتى منها في الاناث ولذلك يرجَّح انها نتيجة الانتخاب الجنسي ايضًا والمظنون انها كانت قبلاً في الرجال والنساء معًا لانها توجد الآن في اجنة الذكور والاناث ثم زال الشعر من وجه المرأة حينما زال من بدنها واما الرجل فحافظ على لحيته او زالت حينما زالت لحية المرأة ثم عادت اليه بالرجوع الى الاصل نظهرت فيه على ضروب شتى لان الصفات التي تَسترجَع لا تَسترجَع على صورة واحدة ولا على درجة واحدة والثاني هو الارجح . وعاد الرجال فاعتنوا بلحاهم في بعض البلدان فغزر شعرها وطالت . واهملوها في غيرها فقل شعرها وقصر . وحتى الآن ترى الرجال في القبائل القليلي شعر اللحى كبعض المتوحشين ينزعون كل شعرة من وجوههم

ويعسر ان يبيَّن كيف طال الشعر في رأس الانسان فان شعر وجه الجنين وهو في الشهر الخامس اطول من شعر رأسه وهذا يدلُّ على ان طول شعر الرأس ليس اصليًا في الانسان بل محدث ويؤيِّد ذلك اختلاف الناس فيه فالزنوج قصار شعر الرأس جدًّا والشعوب الاسيويَّة والاوربيَّة طويلة غالبًا وهنود اميركا يطول شعر رؤوسهم حتى يبلغ اقدامهم . والظاهر ان شعر الرأس طال لاستحبابه والمباهاة به وثبت طولة بالوراثة والانتخاب الجنسي

وخلاصة ما تقدَّم ان الشعر الذي يغطي بدن الجنين وهو في الشهر الخامس من عمره ثم يزول قبل ولادته يدلُّ عند علماء البيولوجيا على ان جسم الانسان كان مغطًّى بالشعر في عصر من العصور وان الشعر أُزيل منه بقصد الزينة او زال من نفسه لسبب طبيعيّ ثم عاد فنبت بعضه في لحية الرجل وشاربيه وصدره واماكن أُخرى من بدنه و بدن المرأة وتنوَّع في الناس بتنوُّع اعتنائهم به . وكلُّ الاحكام المتقدمة لا تخرج عن دائرة الاحتمال ولكنها اذا لم تكن السبب الحقيقي فلا بدَّ من اسباب أُخرى مثلها لما نراهُ من الاختلاف بين الشعوب في شعورهم و بين افراد الشعب الواحد اذ يبعُد عن الظن ان ذلك حدث بالصدفة العمياء او أن الخالق سبحانه لم يجعل لهذا الكون نواميس مقرَّرة بل هو يخلق هذه المرأة قرناء الحاجبين وتلك بلحاهما وهذا الرجل طويل اللحية وذاك قصيرها لحكمة غير مدركة و يطيل شعر هذا سواء اعتنت به ام لم تعتنِ وسواء وُلِدت من قوم طوال الشعور او من قوم قصارها و يقصِّر شعر زينب ولو كان قومها من اطول الناس شعرًا . ويخلق شعر الزنوج يومًا قصيرًا مفلفلاً و يومًا طويلاً سبطًا بلا قاعدة ولا نظام – ذلك برفضه العقل و يناقضه الاختبار فلم يبقَ الاَّ ان شعر الانسان خاضع لنواميس مقرَّرة مما سنَّهُ الباري تعالى لهذا الكون وان علماء الطبيعة الذين بحثوا عن هذه النواميس قد اهتدوا اليها او سيهتدون وقتًا ما والله اعلم